العلاقة بين الأنثربولوجيا وبقية العلوم الأخرى.*

إن الوصول لتحقيق هدف الأنثروبولوجيا الرئيس والمتمثل في فهم الإنسان –هذا الكائن المركب والمعقد– من جميع نواحيه في كل زمان ومكان، يعتمد على الاستفادة من نتائج العلوم الإنسانية والطبيعية التي تختص في دراسة الإنسان كلٌّ في جانب معين، وعليه فإن علم الإنسان من العلوم التوفيقية التي لها علاقة بالكثير من العلوم سواء في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية أو في ميدان العلوم الطبيعية. حيث نجد على العموم ثلاثة أنماط من العلوم في علاقتها من الأنثروبولوجيا، نمط أول له دور في نشأة الأنثروبولوجيا وتطورها، فلم تكن الأنثروبولوجيا وصلت إلى ما وصلت إليه من فهم للإنسان لولا اعتمادها على تلك العلوم وما حققته من نضخج وتقدم، ونمط ثان يتمثل في استخدام الأنثروبولوجيا تقنيات أو نتائج بعض العلوم الأخرى في حل مشكلات معينة، ونمط ثالث يمكن وصفه بنوع من التداخل والاعتماد المتبادل بين بعض العلوم (خاصة العلوم الاجتماعية) وبين الأنثروبولوجيا فيما يتعلق بالموضوعات والتقنيات والمناهج والنظريات. كما هناك من العلماء والباحثين من يصنف العلاقة بين الأنثروبولوجيا وبقية العلوم الأخرى إلى صنفين: علاقة مباشرة وهي العلاقة مع العلوم الاجتماعية لأن الأنثروبولوجيا من طينتها أو من عائلتها المعرفية، وعلاقة غير مباشرة مع باقي العلوم الأخرى مهما كان نوعها وصنفها. وسنحاول فيما يلي تقديم البعض من هذه العلوم وتوضيح طبيعة علاقتها بالأنثربولوجيا.

أولا- علاقة الأنثربولوجيا ببعض العلوم الإنسانية والاجتماعية:

باعتبار أن الأنثروبولوجيا هي علم الإنسان، فإن لها ارتباطًا واشتراكا مع جميع العلوم الإنسانية والاجتماعية –بلا شك–، فالإنسان –الذي يعتبر مركز اهتمام الأنثروبولوجيا– هو نقطة التقاطع بين جميع هذه العلوم، لكنها ترتبط مع بعض هذه العلوم ارتباطًا وثيقًا دون غيرها، لذلك سنحاول فيما هو آت إيراد أهم هذه العلوم.

1/علاقة الأنثروبولوجيا بالفلسفة:

تعود كلمة فلسفة إلى الأصل اليوناني المكون من شقين philo و sophy وتعني **حب الحكمة**، واتخذت عند أرسطو معنى أكثر دقة وشمولا حيث عرفها بأنها "علم المبادىء والأسباب الأولى غايتها البحث عن الحقيقة برمتها وبأكثر أساليب الفكر نظاما وتماسكا" . أي أنها **علم الوجود بما هو موجود** أو الفكر في جوهر وجوده ولا يمكن بلوغ هذه الغاية إلا بإحكام دقيق للفكر، أي بمنهج يستند إلى مبادئ العقل.

وإذا كانت الفلسفة أم العلوم كما كانت تسمى بالنظر إلى شمولية دراستها مجموعة من العلوم الرياضية والإنسانية والفيزيائية، فإن صلة الأنثروبولوجيا بها وثيقة جدا ولاسيما في ما يتعلق بنظرة الإنسان

---

* ملاحظة مهمة: على الطالب أن يركز فقط على العلاقة مع العلوم التي تم تناولها في المحاضرة بشكل حضوري، وهي: العلاقة مع الفسلفة وعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ. أما العلاقة مع باقي العلوم فهي فقط للاستزادة وتوسيع المعلومات حول الموضوع.

إلى **الكون والحياة** في زمان أو مكان محدد، وذلك لأن الزمان والمكان مرتبطان بعلاقة جدلية لا يمكن إدراك مكوناتها إلا من خلال دراسة الفعل الإنساني الذي يسعى إلى البقاء والاستمرار، فدراسة أصل الإنسان ونشأته وحياته وسعيه إلى البقاء والخلود، وما ينجم عن ذلك من تطور وتغير مستمرين كلها تقع في ميدان الدراسات الأنثروبولوجية، ولاسيما تلك العلاقة الأولية بين طبيعة الإنسان وواقعه وما يطمح إليه من أهداف تؤمن سيرورة حياته.

إذا كانت الفلسفة كما يرى أرسطو هي علم المبادىء والأسباب الأولى غايتها البحث عن الحقيقة برمتها، وبأكثر أساليب الفكر نظاما وتماسكا، فإنها بهذا **تشترك مع الأنثروبولوجيا في عملية البحث عن الحقيقة**، وإن كانت وسيلة الوصول إلى الحقيقة في الفلسفة **تختلف** عنها في الأنثروبولوجيا، ذلك أن البحث الأنثروبولوجي يرمي إلى الوصول إلى **حقائق ميدانية** من خلال **معايشة** مجتمعات الدراسة، أو الاعتماد على معلومات توفرها مصادر أخرى؛ عكس الفلسفة التي تعتمد على **العقل**، كما أن نظرة الإنسان إلى الكون والحياة والموت وتأملاته المختلفة في مختلف الأزمنة والأمكنة هو أحد الموضوعات العامة للأنثروبولوجيا التي ترمي إلى الكشف على مختلف أنماط التفكير والسلوك لدى الجماعات البشرية عبر الزمان والمكان.

حيث أن الأنثروبولوجيا هي دراسة للإنسان، فقد شرح الفلاسفة ما يتناوله علم الأنثروبولوجيا بالدراسة، سواء كان على هيئة دراسة ميتافيزيقية للإنسان، أو لإنجازاته الأخلاقية، والجمالية، والعقلانية، وسماته البيئية، والجسدية، والنفسية. فقد اشتملت الفلسفة اليونانية على العديد من المواضيع التي يمكن وضعها ضمن نطاق اهتمامات الأنثروبولوجيا، خصوصًا التساؤلات المتعلقة بأصل الإنسان لدى العديد من الفلاسفة، فعلى سبيل المثال يرى طاليس أن الماء أصل كل شيء؛ مما يعني أن الإنسان خُلق من الماء؛ فمن خلال الإطلاع على الكثير من المواضيع والتساؤلات الفلسفية، يمكننا استنتاج أن المشكلات الأنثروبولوجية هي أيضًا مشكلات فلسفية بامتياز، وباعتبار الفلسفة أم العلوم فإن الأنثروبولوجيا تعتبر من العلوم التي استقلت عن الفلسفة بمنهجها وموضوعها الخاص وبطرق وأساليب بحثها. أي أن الموضوعات التي تهتم بها الأنثروبولوجيا قد اهتمت بها الفلسفة قبل ذلك بأسلوب مختلف.

وترتبط كل من الفلسفة والأنثروبولوجيا **ارتباطًا وثيقًا** ببعضهما البعض؛ ففي حين تقدم الأولى **الأساس والمنهج العقلاني** لدراسة البشر، ثقافتهم وبيئتهم؛ فإن الثانية هي دراسة البشر ضمن **مخطط الزمان والمكان**. لأنه نادرًا ما وُجِد حقل علمي –باستثناء الفلسفة– بَحَثَ عن ماهية الإنسان في جوانبه المتعددة والتي تشمل الدراسة الميتافزيقية للإنسان (الذات والروح والجوهر)، والدراسة الأخلاقية (سمة التطور الأخلاقي، سمة الشخصية، والعادات، والسلوك)، والتحول الاجتماعي والتحول الثقافي، والتطور اللغوي (التواصل والتعبير والصوت)، والدراسة الدينية التي تستكشف نظام المعتقدات والدين للأجيال المختلفة في الحاضر والماضي. هذا يعني أن **الأنثروبولوجيا لها تاريخها في الفلسفة**، فإذا كانت الأنثروبولوجيا هي دراسة الإنسان بحاضره وماضيه وثقافته ولغته وعاداته ودينه وبيئته أيضًا، فإن هذه

القضايا قد نُوقشت في السابق، وتمّ استكشافها في مذاهب الحكمة الفلسفية. **ما الذي يجعل البشر بشرًا؟ ما دورهم في العالم؟ كيف تغيّرت الثقافات؟ كيف كانت الروح والجسد هي العناصر المكونة للإنسان؟ ما دور اللغة في تطور الإنسان؟ كيف تطور البشر مع الزمان والمكان المناسبين؟** ما هي نظريات التطور المختلفة للإنسان، أي النظريات الدينية والروحية والبيولوجية ونظريات علم النفس أيضًا. هذه الأسئلة لها إجابة في الفلسفة، أو بالأحرى الفلسفة أجابت على هذه الأسئلة في الماضي.

فيمكننا استكشاف طبيعة البشر من خلال الانعكاسات الفلسفية للفلسفة القديمة والعصور الوسطى والحديثة، وأيضًا مع النظريات الفلسفية المختلفة. فيبدو أن للفلسفة والأنثروبولوجيا نفس الوظائف التي يجب اكتشافها. تدرس الفلسفة المشكلات الأساسية مثل الوجود والمعرفة والوعي والفهم والسببية والعقل والجسد والوقت والمكان والعالم والذات والواقع. في نفس النهج الموازي، تدرس الأنثروبولوجيا طبيعة الجنس البشري وعلاقته بتلك المشاكل الفلسفية.

ويرى بعض الباحثين أن علماء ورواد الأنثروبولوجيا (خاصة الأوائل منهم) اشتقوا كل نظرياتهم ومفاهيمهم من الفلسفة لأن كل جانب من جوانب الطبيعة البشرية قد ناقشه الفلاسفة بالتفصيل، سواء كان تطور الإنسان روحيًا أم اقتصاديًّا أم وجوديًّا أم بيئيًّا أم ميتافيزيقيًّا أم معرفيًّا أم أكسيولوجيًّا أم عقليًّا أم بيولوجيًّا أم أخلاقيًّا أم ثقافيًّا. تصف الفلسفة الإنسان دائمًا بأنه على رأس المخلوقات، وقد أطلقت الفلسفة عليه العديد من الأسماء.

2 - علاقة الأنثروبولوجيا بعلم النفس:

علم النفس هو "العلم الذي يدرس السلوك باعتباره استجابة من جانب الإنسان للمثيرات الفيزيقية والمثيرات الاجتماعية التي يتعرض لها في بيئته وذلك بهدف تحقيق توافقه في هذه البيئة"، ويعرف أيضا بأنه "العلم الذي يدرس النشاط الحياتي للإنسان والذي يتضمن كلا العمليات العقلية وحالات وسمات الشخصية والاتصال والسلوك، وتقوم النفس بوظائف انعكاسية وتنظيمية للسلوك، ولعل أحسن وصف لعلم النفس هو ما وصفه به ماير "علم النفس هو علم كل من السلوك والتجربة". فعلم النفس هو العلم الذي يهتم بدراسة الجانب النفسي أو النفساني للإنسان، يبحث في مجال سلوك الإنسان، دوافعه الداخلية، انفعالاته، ميوله الفردية، تفكيره، إحساسه وإدراكه وذكاءه؛ وبمعنى آخر دراسة العقل والشخصية الفردية، ويهتم بدراسة الخصائص الجسمية الموروثة وعلاقتها بالعوامل السلوكية لدى الفرد، لاسيما تلك العلاقة بين الصفات الجسمية العامة وسمات الشخصية، مع الأخذ بالحسبان العوامل البيئية المحيطة بهذه الشخصية.

ويختلف علم النفس عن الأنثربولوجيا في **وحدة التحليل**، حيث يقتصر علم النفس في دراسته على **الفرد**، بينما تركز الأنثروبولوجيا اهتمامها على **الجماعة أو المجموعة**، وعلى كل فرد بصفته عضوًا في تلك الجماعة؛ إلا أن ذلك لا ينفي وجود صلة وثيقة بين العلمين، حيث وصلت الصلة بين علم النفس والأنثروبولوجيا حد بروز علم يضمهما معا هو **الأنثروبولوجيا السيكولوجية "الأنثروبولوجيا النفسية"**،

والتي تمخضت عن استخدام الباحثين الأنثروبولوجيين للاختبارات السيكولوجية في فهم البناء الأساسي للشخصية لدى أفراد المجتمعات البدائية، ويتضمن هذا الفرع دراسة **علاقة الفرد بالثقافة والمجتمع (وبالأخص العلاقة بين الثقافة والشخصية)**، فهو يدرس **سلوك الإنسان في الجماعة** بشكل عام. أما علم النفس فيركز على الفرد بشكل خاص، هذا ويوجه الاهتمام في الأنثروبولوجيا النفسية بدراسة الشخصية والتغير الثقافي والدراسة المقارنة للتغير المرتبط بالنمو على امتداد دورة حياة الفرد ودراسة مفهوم الهوية ... إلخ.

وإذا كانت الأنثروبولوجيا تدرس الإنسان من حيث تطوره وسلوكياته وأنماط حياته، فإن علم النفس يشارك الأنثروبولوجيا في **دراستها للسلوك الإنساني**، لكن ضمن الإطار الثقافي والاجتماعي والحضاري الذي ينتمي إليه ويعيش فيه، إلى جانب أنه يدرس تأثير البيئة على سلوك الأفراد، إذ نجد أن سلوك الأفراد بالبادية يختلف كثيرا عن سلوك الأفراد بالمناطق الحضرية. ولكن الاختلاف بينهما هو أن علم النفس يركز على سلوك الإنسان الفرد أما الأنثروبولوجيا فتركز على السلوك الإنساني بشكل عام، كما تدرس السلوك الجماعي النابع من تراث الجماعة.

فعلم النفس يدرس الإنسان في إطار مشكلات السلوك، وقد ظل هذا الميدان المعرفي لفترة طويلة يسهتم بالسلوك الفردي فقط، في حين كانت الأنثروبولوجيا تميل إلى وضع تعميمات جماعية على أسس ثقافية، وصحيح أن الدراسات المقارنة التي أجراها علماء الأنثروبولوجيا قد ساعدت على إبراز أوجه النقص في نظريات الغرائز التي كانت شائعة قديمًا في علم النفس، إلا أن العلاقات الوثيقة بين العلمين لم تكن لتتكون وتنمو إلا بعد أن وجّه الأنثروبولوجيون اهتماماهم إلى موضوع العلاقة بين **الثقافة والفرد (الشخصية)**، حيث استمد الأنثروبولوجيون تحليلاتهم وأفكارهم من المتخصصين في الطب النفسي والتحليل النفسي (خاصة فرويد)، مثلما استعاروا منهم أيضا مفاهيمهم النفسية.

وقد زاد الاهتمام بالتداخل بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس خاصة من خلال أعمال العالمتان الأنثروبولوجيتان الأمريكيتان **مرغاريت ميد Margaret Mead** و**روث بندكت Benedict ruth fulton** وغيرهما، عن مجموعة من المفاهيم التي لطالما اعتبرت عالمية، لكنه وجد أنها قد تختلف باختلاف الثقافات البشرية كمفهوم المراهقة مثلا في أعمال مرغاريت ميد، وهذا ما ينفي النظرة التقليدية في علم النفس والتي تقول بمبدأ الوحدة النفسية للكائن البشري.

حيث لجأ علماء الأنثروبولوجيا من أجل فهم الثقافة إلى **التأويل Interpretation** بمعنى محاولة فهمها بالاستعانة بعلوم أخرى مغايرة من بينها علم النفس والتاريخ، حيث ظهر هذا الاتجاه في كتابات الكثير من علماء القرن 19 وبداية القرن 20، ممن لجؤوا إلى الاستعانة بنظريات وأساليب علم النفس في محاولتهم لمعرفة أصل الثقافة البدائية ونشأتها خاصة في دراستهم للدين والشعوذة والسحر والأساطير. ومن المحاولات المبكرة التي تبرز العلاقة بين الأنثروبولوجيا (الإثنولوجيا آنذاك) وعلم النفس، دراسات الإثنولوجي ريفرز Rivers الذي برز بدراساته العديدة للثقافات غير الغربية، حيث كان يهدف إلى إبراز

المشكلات السيكولوجية الكامنة في المعلومات الإثنوغرافية التي جمعها عن تلك الشعوب، فقد فسّر المعتقدات والأعراف والعادات والممارسات الاجتماعية، من خلال التركيز على اكتشاف العمليات العقلية الكامنة وراء هذه الممارسات، وذلك بهدف فهم نفسية البشر على المدى البعيد. حيث ظل على مدى ربع قرن يقوم بالدراسات الميدانية في عدد من مناطق العالم المختلفة والمتنوعة، وجد من خلالها وجود تشابه كبير للأعراف رغم تباعدها مكانيًا وسلاليًا، فسّر ذلك بتشابه العمليات العقلية المنطقية بين البشر جميعًا. وقد أكدّ ريفرز من خلال خطاب موجه إلى جميعة الفولكلور، أن الهدف الأساسي من الأبحاث التي تدرس الأعراف والمعتقدات والثقافة الشعبية يتمثل في اكتشاف الأسباب النفسية (السيكولوجية) التي تقف وراء أفكار وأفعال الإنسان بصفة عامة، وهو ما يساعدنا على فهم أفضل للإنسان والثقافة.

كما أصبحت هناك علاقة قوية بين علم النفس والأنثروبولوجيا الثقافية، بعد زيادة اهتمام علماء النفس بدراسة الثقافة واهتمام علماء الأنثروبولوجيا بدراسة الشخصية، وتم إجراء البحوث المختلفة التي تبين وتوضح أثر الثقافة في الشخصية، بمعنى الطرق التي تشكِّل بها الثقافة بما تحويه من عادات وتقاليد وقيم ومُثُل وأساليب التنشئة الاجتماعية، تشكل بها شخصيات أفرادها وتطبعهم بطابع معين يسودهم، بحيث يمكننا الكلام مثلا عن الشخصية الجزائرية أو الشخصية الفرنسية أو الشخصية اليابانية.. أي القواسم المشتركة التي تميز شخصيات أفرادها والتي تميزهم عن غير من الشعوب والمجتمعات. فالثقافة من خلال العادات والتقاليد والمعتقدات وأساليب التفكير والممارسات السائدة في الجماعة لها أثر كبير وبالغ في صقل شخصية أفرادها عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية، وتجعل منهم متشابهين في الكثير من مكونات شخصياتهم، وتجعل الجماعة مطبوعة بشخصية جماعية ذات طابع خاص تميزهم عن شخصية الجماعات الأخرى، مع وجود اختلافات فردية في تفاصيل كل شخصية داخل الجماعة.

ومن ناحية أخرى ظهرت العديد من البحوث التي تبحث **أثر الشخصية في الثقافة**، من خلال التركيز على الدور الذي يؤديه بعض الأفراد المميزين والملهمين في المجتمع مثل القادة السياسيين أو الشخصيات الكاريزمية مثلا في طبع وتوجيه الثقافة السائدة في مجتمعاتهم وجهة معينة، مثلما استطاع النبي صلى الله عليه وسلم تغيير الثقافة والممارسات التي كانت سائدة لدى العرب في الجاهلية تغييرًا شاملًا، ومن بعدها ثقافة الشعوب البشرية التي اعتنقت الإسلام في العالم أسره وعلى امتداد آلاف السنين حتى الوقت الحاضر، وهناك أمثلة أخرى في مختلف الشعوب والديانات مثل غاندي في الهند، الزعيم ماوتسي تونج والحكيم كونفشيوس في الصين، وزعيم السود الأمريكيين مارتن لوثر كينج في الولايات المتحدة والأمثلة كثيرة لا يتسع المقام لذكرها. كما أن التعرف على نمط وسمات الشخصية يفيد كثيرًا في فهم الثقافة، فالثقافة في عمومها هي عبارة عن تعميم وتكرار للسلوك الفردي للأفراد الذي يتم التعبير عنه من خلال الأشخاص، فهي توجد من خلال الأشخاص وسلوكهم، فلا يمكن فهم الثقافة فهمًا صحيحًا دون الاستعانة بفهم شخصية وسلوك الأفراد المشكلين لها، وبالتالي فنحن بحاجة ماسة إلى علم النفس في

ذلك. والمجتمع في النهاية هو تجمع لمجموعة من الأفراد والثقافة تعبر عن الطابع الجمعي الذي يصبغ شخصياتهم، وبالتالي فلا يمكن فهم هذا الطابع بمعزل عن شخصية الأفراد المشكلين لهذا المجتمع.

كما أن التعاون بين بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس قد أثمر في ظهور فرع علمي، جديد أطلق عليه **الثقافة والشخصية** "***Culture and Personality***"، حيث يرى أنصار هذا الاتجاه أنه لكي يفهم الباحث الثقافة عليه أخذ خصائص تنظيم الشخصية وتكوينها بعين الاعتبار، وقد استفادوا كثيرا في ذلك من **نظرية التحليل النفسي ونظرية التعلم السلوكي**، حيث ركزوا على تحليل الأنماط الثقافية الاجتماعية في ضوء الوقائع الفردية. ومن جهته يرى كلاكهون أن بعض المفاهيم النفسية (السيكو–تحليلية) مثل **التناقض الوجداني والإسقاط والحالات العصبية القهرية** قد ساعدت الأنثروبولوجيين كثيرًا على فهم الكثير من الظواهر المحيرة (خاصة لدى الشعوب البدائية) مثل المعتقدات والممارسات التي تدور حول الموت، والمخاوف المرتبطة بالعرافة والكثير من الممارسات الطقوسية التي يمارسونها، كما استفادوا أيضا من مفاهيم سيكولوجية أخرى مثل **أحلام اليقظة (الخيال الجامح) والطاقة الجنسية واللاشعور والتوحد،** واعتمدوا عليها في فهم الدين والفن وبعض الظواهر الرمزية الأخرى. كما أن **المدرسة السلوكية** في علم النفس قد ساهمت هي كذلك في تقديم نماذج استفاد منها الأنثروبولوجيون في اختبار الأفكار الثقافية المقارنة التي تناولت العلاقات بين متغيرات تربية الطفل ومركبات العرف. وقد اقترح "هسو" بعد ذلك استخدام مصلح **الأنثروبولوجيا السيكولوجية (النفسية)** بدلا من الثقافة والشخصية لتجنب الدلالات الفردية للشخصية وخوفًا من اقترابها كثيرًا من علم النفس بدلًا من الأنثروبولوجيا، وقد اهتمت الأنثروبولوجيا السيكولوجية بالكثير من القضايا الهامة أبرزها: استخدام البناءات النفسية للأفراد لتفسير الأشكال والانماط الثقافية، دراسة تأثير الأشكال الثقافية على بناءات الشخصية، وتفسير السلوك الإنساني في السياق الثقافي.

فالعلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس وثيقة وقوية من عدة جوانب حسب ريفرز، والذي يرى الجوانب التي يرتبطان فيها من خلال: أن كلا من المؤرخ والأنثروبولوجي والفلكلوري يحتاجون إلى عالم النفس لمعرفة الدوافع والعمليات التي وجهت عمليات التطور البشري؛ أن التفاعلات الاجتماعية وما يترتب عنها من أعراف ومعتقدات تعتبر مادة بحثية هامة لعالم النفس لدراسة السلوك الاجتماعي للفرد أي سلوك الفرد في سياق الثقافة ونظمها وفي سياق المجتمع؛ أن العلاقة تبادلية بين علم النفس والأنثروبولوجيا فكلاهما يمكن أن يساعد الآخر في دراساته، فكما يمكن لعالم النفس أن يستقي مادته التفسيرية من الدراسات الأنثروبولوجية، فكذلك يستعين الأنثروبولوجي بالدراسات والمفاهيم النفسية في الكثير من الأحيان.

3/ علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الإجتماع:

يعتبر علم الاجتماع من بين العلوم التي لها ارتباط كبير مع الأنثروبولوجيا، وذلك على مستوى النشأة والمنهج والمواضيع على حد سواء، فالأنثروبولوجيا (نخص بالذكر الإثنولوجيا والإثنوجرافيا في فرنسا والاتحاد السوفياتي والأنثروبولوجيا الاجتماعية في بريطانيا) كانت تدرّس تحت مظلة علم الاجتماع كما سبق وأن أسلفنا في المحاضرات السابقة، فقد كانت تدرّس كتخصص تابع لعلم الاجتماع في الكثير من البلدان، مما يؤكد الصلة الوثيقة بين العلمين، كما أن لهما تداخلًا كبيرًا في الكثير من المناهج والمواضيع التي يشتركان في دراستها وفق زوايا ونظريات تتقارب وتتباعد حسب السياق، كما يشتركان في وحدة التحليل فكلاهما يهتم بدراسة **الجماعة الإنسانية**.

وبالرجوع إلى تاريخ الأنثروبولوجيا نجد أنها استقت الكثير خاصة في بداياتها من علم الاجتماع عندما ظهر في القرن التاسع عشر ميلادي أو مما شكلت فلسفته من خلال أفكار مونتيسكيو Montesquieu، دوتكفيل de, Tocqueville ، أوغست كونت Auguste, comte ، ودوركايم ومارسيل موس، خاصة الثنائي الأخير (الفرنسيين إيميل دوركايم وابن أخته مارسيل موس) اللذان يعود لهما الأثر البالغ في الأنثروبولوجيا البريطانية وتركيزها على دراسة **البناء الاجتماعي والنظم والوظائف والعلاقات الاجتماعية**، مما دعا راد كليف براون (أحد أكثر المتأثرين بفكر دوركايم) إلى القول بأن الأنثروبولوجيا الاجتماعية هي **فرع من فروع علم الاجتماع المقارن** الذي يدرس الظواهر الاجتماعية عبر المجتمعات، وقد ناهض البعض هذه الفكرة على أساس أن الأنثروبولوجيا تدرس الإنسان، ثقافته، ونظمه الاجتماعية في المجتمعات البسيطة والبدائية نسبيا أما علم الاجتماع فيهتم بدراسة المجتمعات الإنسانية الحالية والكبرى. ولكن مع تطور اهتمامات الأنثروبولوجيا انتفت هذه الفكرة.

ولفهم طبيعة العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، يجب أن نميز بين التوجه التقليدي والكلاسيكي لكل من الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وبين توجههما المعاصر (خاصة بعد الحرب العالمية الثانية)، حيث أنه في التوجه التقليدي كان هناك **تباعد واضح** بين العلمين من حيث الموضوع والمنهج ومجال الدراسة وكان الفارق بينهما واسعا، لكن مع التوجه الحديث صار **التقارب والاقتراب والالتقاء** شديد بينهما في الكثير من النقاط والزوايا إلى حد التشابه. لدرجة صار الباحثين في كلا العلمين يعتمدون بشكل متبادل على بعضهم البعض.

- **<u>في موضوع ومجال الدراسة</u>:** كان اهتمام علماء الاجتماع يتركز على دراسة **الأنماط المجتمعية الحديثة**، وخاصة فيما يتعلق بمشكلات المجتمع الصناعي، بينما كانت الدراسات الأنثروبولوجيا (خاصة الاجتماعية) تركز على دراسة **المجتمعات البدائية**. وكان علم الاجتماع يهتم في دراسته بالمجتمعات ذات **التنظيم المعقد** مثل المجتمعات الصناعية، في حين اهتم علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالمجتمعات ذات **التنظيم البسيط** مثل المجتمعات الصغيرة، وبمعنى آخر اهتموا بالمجتمعات البدائية أو المجتمعات

التي لا تعرف القراءة والكتابة أو المجتمعات العشائرية أو القبلية بهدف التعرف على أصول النظام الاجتماعي لهذه المجتمعات والفروق الاجتماعية التي تميزها عن بعضها البعض. لكن بعد ذلك حدث مزيد من التقارب بين موضوعات البحث في كلا العلمين، فلم يعد يهتم الباحثين في الأنثروبولوجيا بالمشكلات التقليدية في المجتمعات البدائية، بل أصبحوا يهتمون هم كذلك بالمجتمعات الصناعية (مثل مشكلات الهجرة والصراع العرقي والتنمية الاجتماعية..)، وعلى الجانب الآخر بدأت الدراسات السوسيولوجية تهتم بدراسة المجتمعات المحلية الصغيرة ونظمها الاجتماعية (مثل علم الاجتماع الريفي الذي يهتم بالمشكلات الاجتماعية في المناطق الريفية). وباتت المشكلات الأساسية في كل من العلمين تصل إلى درجة من التشابه تجعلهما يصلان إلى نظرية متقاربة، هذا إن لم تكن نظرية واحدة لكليهما.

– **<u>مناهج وطرق البحث</u>:** في بداياتهما تميزت الدراسات السوسيولوجية **بالاتجاه الكمي** والاعتماد على البيانات الكمية والإحصائية في عملية التحليل والمقارنة واعتمادها بشكل أساسي على العينات والاستمارة والمقابلة الموقفية والوثائق والإحصائيات، بينما تميزت الدراسات الأنثروبولوجية **بالاتجاه الكيفي والمنهج الإثنوغرافي والدراسة الحقلية** (أي دراسة المجتمع دراسة مباشرة من خلال عيش الباحث فيه) والاعتماد بشكل أساسي على **الملاحظة بالمشاركة** والاستعانة **بالمخبرين**. لكن بعد ذلك أصبح كل منهما يعتمد على الأساليب الكمية والكيفية على حد سواء، ويعتمدان بشكل متبادل على الأساليب والأدوات التي تميز بها كل علم سابقا، إلى حد ظهر فيه منهج يمزج بين طرق وأساليب العلمين يسمى بالمنهج السوسيو-أنثروبولوجي ويعتمده الأنثروبولوجيون والسوسيولوجيون على حد سواء.

– **<u>شمولية البحث</u>:** في البداية كانت الأنثروبولوجيا تهتم بدراسة المجتمعات دراسة شاملة أي دراسة الحياة الاجتماعية ككل، وتميل عند دراسة أي نظام أو مشكلة اجتماعية إلى إبراز علاقات التكامل والتساند بين الجوانب والنظم الاجتماعية المختلفة؛ بينما كانت الدراسات السوسيولوجية التقليدية تدرس كل نظام أو مشكلة في حد ذاتها بمعزل عن السياق الذي تحدث فيه، حيث تقتصر على دراسة ظواهر محددة أو مشكلات معينة أو مشكلات قائمة بذاتها كمشكلات الأسرة، الطلاق، الجريمة، البطالة، الإدمان والانتحار ...الخ . أما الآن فقد أصبح الاتجاه التكاملي وشمولية البحث يميز علم الاجتماع والأنثروبولوجيا على حد سواء.

باختصار فقد كان موضوع الدراسة في كلا العلمين مختلفًا، فقد ركز الأنثروبولوجيون اهتمامهم في الماضي على دراسة المجتمعات البسيطة والمنعزلة، في حين كان السوسيولوجيون يركزون دراساتهم على المجتمعات المتحضرة في أوروبا والغرب بصفة عامة، وبطبيعة الحال فقد أدى الاختلاف في الموضوع إلى اختلاف في مناهج البحث، فقد كان الباحث الأنثروبولوجي الذي يدرس جماعة صغيرة الحجم لا يحتاج إلى اختيار عينات للدراسة بل يدرس الجماعة ككل، في الوقت الذي كان الباحث في علم الاجتماع الذي يدرس مجتمعات كبيرة الحجم يولي العينة وكيفية اختيارها أهمية بالغة. لكن بعد أن بدأت الأنثروبولوجيا تخرج عن نطاق دراسة المجتمعات البسيطة إلى دراسة المجتمعات المتحضرة، بدأ

الاختلاف في المناهج يتقلص بينها وبين علم الاجتماع، وأصبح مفهوم الثقافة (الذي كان حكرًا على الأنثروبولوجيا) يستخدم على نطاق واسع في علم الاجتماع، حتى صار علم الاجتماع الثقافي فرعًا من فروع علم الاجتماع، وقد أصبح أيضا المتخصصون في العلمين يحرصون بدرجة متزايدة عند وضع نظرياتهم على الاستفادة من المعلومات التي يقدمها كل من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا.

4/ علاقة الأنثروبولوجيا بالتاريخ:

التاريخ مشتق من الفعل الماضي "أرّخ" وأرّخ الشيء بمعنى كتبه ودوّنه، أما من الناحية الاصطلاحية فالتاريخ عبارة عن سجل للخبرات السابقة المتعلقة بموضوع معين أو مشكلة معينة، في كافة ميادين الحياة، من أجل فهمها جيدًا حاضرًا، والتنبؤ بما ستؤول إليه مستقبلًا؛ فكلمة التاريخ تدل بصفة عامة على العلم الذي إلى إنقاذ الحقائق الماضية من النسيان، فهو يدرس أحداث وأفعال الأفراد وتجاربهم في الماضي، وما يترتب عليها من آثار نفسية وحضارية ومادية. فهو علم نقد وتحقيق، يستند إلى الوثائق والمخطوطات، التي يقوم المؤرخ بفحصها فحصًا دقيقًا، ويحكم عليها حكمًا احتماليًا؛ ويعتمد في ذلك على بعض الوثائق والتراجم التي يكتبها الأفراد الذين عايشوا الحدث. فهو علم إنقاذ الحقائق الماضية من النسيان والضياع.

في عشرينات القرن الماضي أثير سؤال وهو: ما علاقة علم الإنسان بالدراسات التاريخية؟ وهل للأنثروبولوجي أن يستعين بالتاريخ والمعلومات التاريخية في دراسته للمجتمعات البدائية؟ لكن هذه الأسئلة لم يعد لها معنى بعد ذلك، لأن علماء الإنسان يجمعون على ضرورة الاستعانة بالتاريخ والدراسات التاريخية في دراسة المجتمعات البدائية والقديمة والسحيقة. وقد كان للتطور الذي عرفه علم الآثار دور أساسي في نشأة وتطور الأنثروبولوجيا (خاصة الفيزيقية)، علم الآثار الذي كان إلى عهد قريب جزءًا من علم التاريخ قبل أن ينفصل عنه، وقد كان الأنثروبولوجيون الأوائل أمثال مالينوفسكي وراد كليف براون يذهبون إلى أن الأنثروبولوجيا لن سكون لها معنى إذا لم تخرج التاريخ من دائرة نشاطها، واعتقدوا أن على الأنثروبولوجيين تركيز جهودهم ودراساتهم على المجتمعات التي يستطيعون مشاهدتها ودراستها بأنفسهم وبشكل مباشر، أما ما حدث في تلك المجتمعات في الماضي فلا اعتداد به لأنه لا يؤثر على هذه الدراسة، ذلك أن تاريخ هذه المجتمعات البدائية ليس به وقائع يعتد بها أو معلومات يمكن الاستفادة منها علميًا، حيث كانت تلك وجهة نظر علماء المدرسة الوظيفية التي كانت تركز على الحاضر في دراسة الثقافة والبناء الاجتماعي.

بينما على النقيض من ذلك ذهب الكثير من العلماء الآخرين خاصة في التيار التطوري والانتشاري وغيرهم، إلى أن الأنثروبولوجيا تقوم على الدراسات التاريخية التي بدونها لا تصبح شيئًا على الإطلاق، حيث يذهب هؤلاء إلى أن كل وقائع المجتمعات تقع في زمن معين والثقافة ليست إلا ظاهرة مستمرة تتغير باستمرار بين يوم وآخر وكل مشاهدة لظاهرة في الأنثروبولوجيا هي تسجيل لواقعة تارخية. أما علماء الأنثروبولوجيا المحدثون فيرون أن علم الإنسان علم وتاريخ في الوقت نفسه، فهو علم طبيعي

فيزيائي اجتماعي وهو مهتم بالوقائع التاريخية للمجتمعات التي يدرسها، ولكن دراسة هذه الوقائع ليس كافيًا حسبهم لتكوين علم الإنسان، فهو يدرس الإنسان والثقافة الإنسانية دراسة أساسها دراسة الوقائع الحالية أو الحاضرة، مضافة إلى الوقائع الماضية الثابتة وتحليلها.

وحتى الخمسينات من القرن العشرين كانت لا تزال عملية الفصل بين التاريخ والأنثروبولوجيا، في أن التاريخ يهتم **بالماضي الأوروبي**، والأنثروبولوجيا تهتم بالمجتمعات **غير الغربية المعروفة بالمجتمعات اللاتاريخية**، فضلا عن أن التاريخ يحاول إدراك السير الكرونولوجي للأحداث وإعادة بناء مراحل التطور، بينما الأنثروبولوجيا تحاول فهم البناء الوظيفي للمؤسسات الاجتماعية. وانطلاقا من الستينات للقرن العشرين، حدث ما يسمى بتجديد الأنثروبولوجيا، أي الانتقال إلى دراسة المجتمعات الأوروبية، مما ساعد ذلك على إبراز إشكاليات مشتركة بين التاريخ والأنثروبولوجيا، حيث أصبح التاريخ يدرس مواضيع تقليدية للأنثروبولوجيا، كالأسطورة، القرابة، الأعياد، الموت...إلخ .وفي نفس الوقت يتعلم من إشكالياتها ليصبح تاريخا أنثروبولوجيا، أو ما يسمى با**لأنثروبولوجيا التاريخية**. لكن الأنثروبولوجيا لم تعد تهتم فقط بالإنسان البدائي، فقد أدرجت الإنسان المعاصر منذ 1869 م ضمن موضوعاتها البحثية في الحقل الأنثروبولوجي، وبالتالي أصبح الفرع التاريخي أكثر التصاقا من الناحية الفيزيائية بعلم الإنسان وكل ما يتعلمه من كتابات التاريخ حول النظم الاجتماعية.

إن ما يميز الأنثروبولوجيا، أنها **علم تاريخي**، لأن دراسة الإنسان وثقافته تكون من خلال عاملي الزمان والمكان، فالتاريخ يصف كل ما يستطيع الأنثروبولوجي أن يكشفه عن ماضي الشعوب التي يدرسها، حيث يتميز التاريخ الثقافي والعضوي للإنسان بالدينامية، فهو في حركة مستمرة نحو التغير، لكن في شكل حلقات متسلسلة ومترابطة ومتكاملة، **فلا يوجد مجتمع دون تاريخ**، لذلك برزت الأنثروبولوجيا التاريخية والتي من خلالها يزود الأنثروبولوجي باحث التاريخ بتفاصيل الحقبات الزمنية وما شهدته من تفاعلات وأنظمة اجتماعية؛ وهذا ما يؤكد صحة فرضية أن كل سيرورة اجتماعية منجزة تاريخيا، يمكن أن تحتوي في ذاتها على العناصر الضرورية للتعليل العلمي.

لكن يستمر الاختلاف بين الأنثروبولوجيا والتاريخ في ميدان مشروع المعرفة، على اعتبار أن الأنثروبولوجيا غير منفصلة عن التاريخ، فهناك مثلا أنثروبولوجيا للديانة وتاريخ الديانات، وهنا يكمن الاختلاف في البعد المنهجي والتشابه في البنية المنطقية. فالأنثروبولوجي يهتم بوصف الأحداث والتعرف على الأسباب والعوامل التاريخية التي أسهمت في نشأة الحضارات وتكوينها من خلال مناهج البحوث التاريخية غير المدونة، وهذا ما يعزز العلاقة التكاملية بين التاريخ والأنثروبولوجيا.

وفي هذا السياق الإزدواجي للتاريخ والأنثروبولوجيا، صرح **ميتلند** ***F.W.Maitland***، بأنه **يجب على الأنثروبولوجيا أن تختار بين أن تكون تاريخية أو لا تصبح شيئا على الإطلاق**، وقد دعم هذا الرأي أيضا **ميتشال أوكيشو** ***Michael Oakeshot*** كما يؤكد **كلود ليفي ستروس** على **أن معرفة الماضي تعتبر ضرورة حتمية لمعرفة الظواهر الاجتماعية**، فهو يساند المؤرخين في فكرة أن التوصل إلى

التعميمات، يحتاج منا إلى الفحص الدقيق لكل النماذج الاجتماعية حسب عاملي الزمان والمكان، ليتسنى لنا الكشف عن مقومات البناء الاجتماعي، وهذا ما يفعله الأنثروبولوجي في تتبع تاريخ المجتمعات للتعرف على ديمومة واستمرارية هذا البناء، وعليه يكتسي البعد التاريخي في الدراسات الإنسانية والاجتماعية أهمية وضرورة حتمية للأنثروبولوجيا.

فكل من التاريخ والأنثروبولوجيا يلتقيان في أكثر من موقع سواء من حيث المنهج أو من حيث الهدف، حيث على غرار المؤرخ يقوم الأنثروبولوجي بتجميع الحقائق عن موضوع دراسته؛ وفي اهتمام الأنثروبولوجي بوصف الأحداث والتعرف على العوامل التاريخية المساهمة في نشأة الحضارة والثقافة الإنسانية لمجتمع معين، يستخدم في ذلك مناهج البحوث التاريخية، والتي ليس لها سجلات مكتوبة، وعلى ذلك فإن مناهج البحث في الأنثروبولوجيا والتاريخ متكاملة؛ ومع ذلك فالأنثروبولوجي ليس مؤرخًا، فالمؤرخون يدرسون **الأحداث والوقائع التي مضت وانقضت**، لكن الأنثروبولوجي يدرس ويصنف ما يوجد في الوقت الراهن، عكس المؤرخ الذي لا دخل له بالحاضر وإنما يدرس الأحداث السابقة. فالتاريخ يهتم بدراسة ماضي الإنسان، بينما تهتم الأنثروبولوجيا بدراسة ماضي وحاضر ومستقبل الإنسان.

5/ علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الآثار:

إن علم الآثار Archéologie شريك جد مهم في ميلاد الأنثروبولوجيا، ومصطلح أركيولوجيا مشتق من الكلمة الإغريقية Archeologia ومعناها العلم الذي يهتم بكل ما هو قديم. وعليه فإن علم الآثار هو علم يدرس البقايا المادية للإنسان في المجتمعات المختلفة كالآثار، الأواني، النقود والمواقع الأثرية في حين غمر بعضها مع الزمن في أعماق الأرض.

ويعد علم الآثار علما حديثا نسبيا وقائما بحد ذاته زاد تطوره باكتشاف الكربون المشع وبالوسائل العلمية والتكنولوجية الحديثة المستخدمة بغرض التنقيب، لذا فالدراسات الأركيولوجية تستدعي القيام بالبحث والتنقيب عن البقايا المادية (قطع أثرية، نقدية، سكنية...الخ) والعضوية (بقايا عظام، حيوانات، نباتات.)... تركز الأركيولوجيا على دراسة الثقافة المادية للإنسان التي تتعامل مع الأجسام الطبيعية التي خلقت أو استعملت ضمن مجموعة حية راهنة أو ماضية كمحاولة لفهم قيمها الثقافية من خلال دراسة مخلفاتها وآثارها، أو إعادة بناء تاريخي يرسم صورة الأشكال الثقافية الماضية وذلك بتتبع نموها وتطورها عبر الزمان، كما يدرس علم الآثار مجتمعات وثقافات ما قبل التاريخ، وما يعثر عليه الباحث التاريخي من آثار يستفيد منها الباحث الأنثروبولوجي **في وصف الثقافة القديمة وربطها بالبيئة الطبيعية التي وجدت فيها**، ومن ثم **معرفة وربط حضارة الإنسان الكلية عبر هذه المواد التي يجدها عالم الآثار بالجانب الاجتماعي والثقافي** ، وقد يعد هذا ما دفع بالكثيرين إلى اعتبار علم الآثار تخصصا من تخصصات الأنثروبولوجيا. مع الاهتمام بالدراسة التحليلية المقارنة بين مجاميع الآثار، التي ترجع إلى عصر واحد في شعب واحد أو بين مجموعة من الشعوب المختلفة.

عنوان الصورة: رسوم أثرية تعبرعن ثقافة الشعوب القديمة.

إذن هناك ارتباط وثيق بين علم الإنسان وعلم الآثار، فهذا الأخير يعتمد على **الدراسات التتبعية** وذلك بتتبع المجتمعات والثقافات القديمة خاصة في المجتمعات التي تفتقر إلى التراث المكتوب، ذلك أن الكتابة اختراع إنساني حديث للغاية على التاريخ البشري، ففي حين ترجع البدايات الأولى للثقافات الإنسانية إلى حوالي مليون سنة مضت تقريبا، لا ترجع الكتابة إلا إلى أكثر من حوالي خمسة آلاف سنة فقط، بل نجد علاوة على هذا أن الكتابة لا تزال غير معروفة في عدد كبير من المجتمعات البشرية الراهن. وبهذا يحاول كلا من الأركيولوجي والأنثروبولوجي شرح كيفية تكيف الإنسان مع بيئته وسيطرته على الطبيعة وتكوين ثقافته من خلال ما توفر لهما من معطيات. ومن هنا نستشف **العلاقة المتبادلة** والفعالة بين الأنثروبولوجيا والأركيولوجيا. فعلماء الآثار يستخدمون مناهج علمية متعددة مستعينين بنتائج دراسات أجريت ضمن تخصصات أخرى، من بينها الإتنولوجيا والأنثروبولوجيا واللسانيات؛ بينما يبدأ عمل الأنثروبولوجي من حيث ينتهي الأركيولوجي، فهو يصف ويفسر الثقافات التي اكتشف علم الآثار بقاياها، ويستعملها في طرق عيش الجماعات الإنسانية في العصور القديمة.

6- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم السكان:

علم السكان هو "العلم الذي يدرس أعداد السكان (الحجم) والتركيب والتوزيع السكاني وحركية السكان وتطوير أولئك السكان في مجتمع معين وكذلك العوامل التي تتدخل في تحديد هذا التركيب وآثار هذا التركيب السكاني على الظروف الاجتماعية الأخرى ".

وإذا كان هذا العلم يهتم بدراسة أعداد السكان، فهناك علاقة تربط بين هذا العلم وبين علم الأنثروبولوجيا، فهذه الأخيرة تتصل في جوانبها الاجتماعية بعلم السكان، وقد تخصص فريق كبير من علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية في دراسة الأحوال المعيشية والحضارية والخلقية لسكان الجماعات البدائية المتخلفة. ووجه الكثير منهم اهتماما خاصا لدراسة السكان الأصليين في أستراليا والأمريكيتين

وخاصة بعد توطن الأوروبيين في تلك القارات لاستثمار المواد الأولية ولحل أزمات البطالة والمشكلات السكانية في القارة الأوروبية.

وقد كان اهتمام المفكرين والفلاسفة من قبل بهذه الجماعات مبعثه في بادئ الأمر حب الاستطلاع والتعرف على الغريب غير المألوف، ولعقد المقارنة بين حالة السكان الذين يعتمدون اعتمادا مباشرا على الموارد الطبيعية وبين السكان الذين تقدمت بهم سبل المعرفة والإنساني؛ أما الآن فقد أصبح الاهتمام بدراسة أحوال سكان المناطق التي هاجر إليها الأوروبيين أو استعمروها يقوم على أسباب أكثراتصالا العلم منها الطريقة الفكرية وأصبحنا نجد تخصص في دراسات ميدانية لسكان تلك المناطق.

7/ علاقة الأنثروبولوجيا بعلم السياسة:

يعرف أيضا بعلم الدولة، فهو يختص بدراسة ممارسات الدولة لسلطاتها وأنظمة حكمها وما يتبعها من حقوق وواجبات اتجاه المجتمع، لذلك يميل علماء السياسة إلى تركيز أبحاثهم على دراسة النسق السياسي، لارتباطه بالمجتمع أو بالأنساق الاجتماعية. وهنا يشير العالم الفرنسي **جورج بلانديه**، أنّ الأنثروبولوجيا السياسية لفتت انتباه المفكرين قديما وحديثا كموضوع للدراسة وكتخصص علمي ضمن ميادين البحث الأنثروبولوجي، لذلك فهي ترتبط بعلم السياسة لاشتراكهما في الموضوع، وحتى علماء السياسة يسعون باستمرار للحصول على المعلومات الأنثروبولوجية المتعلقة بأنظمة الحكم والنسق السياسي بصفة عامة.

ومما زاد من تدعيم علاقتهما، ثراء الدراسات التي حاول علماء الأنثروبولوجيا من خلالها فهم وتحليل الأنظمة السياسية للمجتمعات الإنسانية.

8/علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الاقتصاد:

عندما نتحدث عن علم الاقتصاد، نذكر آدم سميث الذي ميزه بأنه علم الثروة، فهو يختص بدراسة ثروة الأمم وأسبابها ومظاهرها الخارجية، مما ساعد ذلك على توطيد العلاقة التبادلية بين إنتاج الثروات المادية واحتياجات الإنسان في إشباعها، لأن علم الاقتصاد يبحث بدرجة أساسية في تحقيق مختلف المبادلات بما يخدم المصالح المشتركة، خاصة الاقتصادية، لذلك فإن من أهم مظاهر التنظيم الاجتماعي في المجتمعات الإنسانية هو النشاط الاقتصادي، وفي المقابل أصبح الإنسان لا ينتج ما يستهلكه، ولا يستهلك ما ينتجه، إنّما يستخدم مبدأ المبادلة وفق قوانين وقواعد تنظيمية بعيدة عن التسلط والاحتكار، لأجل ذلك تختلف المجتمعات البشرية في نوعية نظمها الاقتصادية والتشريعية والسياسية وفقا للتطورات الاجتماعية الطارئة. وهذا ما ساعد على نشوء الأنثروبولوجيا الاقتصادية القائمة على الإنتاج والتبادل والاستهلاك.

وتختلف المجتمعات البشرية في نظمها الاقتصادية وفي سلوكها الإنتاجي والاستهلاكي، بل إنها تختلف في المجتمع الواحد باختلاف العصور والحقب الزمنية، وباختلاف التطور الاجتماعي العام الذي يطرأ على المجتمع، وقد أكدت الدراسات الترابط القوي بين النظام الاقتصادي وباقي النظم الاجتماعية في

المجتمعات البدائية، لذلك اهتمت الأنثروبولوجيا الاقتصادية بالدراسة المقارنة للأنساق الاقتصادية، والتي تتدرج في المجتمعات المحلية المنعزلة والبدائية من حيث التكنولوجيا، إلى تلك القروية المتأثرة بالتصنيع، كما استخدم الأنثربولوجيون البعد الاقتصادي لفهم نظم القرابة والبناء الانقسامي والعلاقات الاقتصادية التي تقوم بين الوحدات القرابية والإقليمية، ودورها في تحقيق وحدة وتضامن وتماسك الوحدات الاجتماعية.

واستنادا إلى ذلك، أسهمت الدراسات الاقتصادية في تقدم وتطور ميدان الأنثروبولوجيا الاقتصادية، خاصة ما أسهم به كارل ماركس وزميله انجلز في الاقتصاد السياسي ورأس المال وفائض القيمة. إن ميزة العلاقة بين العلمين تكمن بصفة خاصة في مبدأ التبادل كعملية ونشاط ذات بعد ثقافي، بالرغم من أنه يعتبر ظاهرة اقتصادية، لكنه يرتبط بثقافة المجتمع، بما يجعله من أهم اهتمامات الأنثروبولوجيا بالدراسة والتحليل لمختلف مكونات التبادل ووظائفه داخل الجماعات.

ثانيا- علاقة الأنثروبولوجيا ببعض العلوم الطبيعية:

لا ترتبط الأنثربولوجيا مع العلوم الإنسانية والاجتماعية فقط، بل لها ارتباط وعلاقة ببعض العلوم الطبيعية الأخرى، وفيما يلي سنحاول تقديم أمثلة مختصرة عن عينة من هذه العلوم.

1/ علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الأحياء (البيولوجيا):

البيولوجيا كلمة يونانية مكونة من شطرين Bios بمعنى الحياة Vie و logos بمعنى علم أو دراسة، وبهذا فهي تعني علم الحياة Science de vie . يدرس هذا العلم البنى الحية مثل : الأجهزة، الأعضاء، الخلايا ومكوناتها، طريقة تكونها، عملها والعلاقات التي تربط بينها وبين بيئتها، حيث يتناول علم الحياة دراسة الكائنات الحية من وحيد الخلية الأبسط تركيبا حتى كثير الخلايا الأكثر تعقيدا ولذلك يعرف أيضا بأنه العلم الذي يدرس الكائن الحي من حيث بنية أعضائه وتطورها.

ويرتبط علم الأحياء بالعلوم الطبيعية، ولا سيّما علم وظائف الأعضاء والتشريح وحياة الكائن الحي. وتدخل في ذلك، نظرية التطوّر التي تقول بأن أجسام أجناس الكائنات الحيّة وأنواعها ووظائف أعضائها، تتغيّر باستمرار ما دامت هذه الكائنات تتكاثر وتنتج أجيالاً جديدة، قد تكون أرقى من الأجيال السابقة، كما هي الحال عند الإنسان. كما تستند هذه النظرية إلى أنّ الإنسان بدأ كائناً حيّاً بخلية واحدة، تكاثرت في إطار بنيته العامة، إلى أن انتهى إلى ما هو عليه الآن من التطوّر العقلي والنفسي والاجتماعي، وهذا ما دلّت عليه بقايا عظام الكائنات الحيّة المكتشفة في الحفريات الأثرية.

فالأنثروبولوجيا، من الناحية النظرية، شديدة القرب من البيولوجيا؛ فكلاهما يدرس عملية إعادة إنتاج الحياة، وكلاهما مبنيّ على نموذج نظري للتنوّع، وكلّ في تخصّصه. لكنّ نتائج الحوار في الدراسة الميدانية، أدّت كما يقول "**كارلوس سافيدرا**" إلى أنّ المبادئ التي تأسّست عليها نظرية التطوّر تتبع من الناحية المنطقية والمنهجيّة، توالياً أو نموذجاً، يسير من الثبات إلى التغيّر ..فبنو الإنسان من أصل واحد،

سواء أكان التطوّر بالتعبير التطوّري أو بتركيب الحمض النووي بالتعبير التزامني، ولكن هناك أيضاً –في الوقت نفسه – تشوّهات وتغيّرات مختلفة الأشكال، بنيوية وتركيبية بالمصطلح الأنثروبولوجي.

ويحظى تحليل التنوّع في العلمين، بدور حيوي: التنوّع الجيني في علم البيولوجيا والتنوّع الاجتماعي في الأنثروبولوجيا، (فالتنوّع أمر أساسي لما تسمّيه البيولوجيا "الفاعلية البيولوجية" وهي القدرة على مواصلة الحياة، والإخلاف الذري؛ والأمر ذاته نجده في الأنثروبولوجيا فيما يطلق عليه : إشباع الحاجات الأساسية.

يعدّ "داروين" رائد علم الأحياء، الذي استند فيه إلى نظرية (النشوء والارتقاء) في حياة الإنسان، والتي قدّم لها تفسيرًا منهجياً معقولاً، يتلخّص في الأمور التالية:

1–إنّ عمليات الحياة المتتابعة بمعطياتها وظروفها، تنتج كائنات مختلفة عن أصولها .. أي أنّ أنواع هذه الكائنات لا تتكرّر هي ذاتها من خلال التكاثر، بل تتنوّع في أشكالها ومظاهرها.

2–إنّ الخصائص التي تتمتّع بها بعض الكائنات الحيّة، تجعلها أكثر قدرة على البقاء من بعضها الآخر، حيث تستطيع التلاؤم مع الظروف البيئيّة الخاصة التي تحيط بها.

3–إنّ الكائنات الحيّة الجديدة، الأكثر قدرة ورقيّاً، تمتلك عوامل التكاثر والاستمرار على قيد الحياة، لفترة أطول ممّا هي عند بعض الكائنات الضعيفة الأخرى، التي تتعرّض للانقراض السريع.

4– إنّ بعض الخصائص البيولوجية (الصفات المهلكة) عند بعض أنواع الكائنات الحيّة تؤدّي إلى موتها بصورة سريعة، وربّما مباشرة، إذا لم تكن هذه الخصائص تؤهّلها للتكيّف مع الظروف البيئيّة؛ وهذا ما يؤثّر سلباً في نسل هذه الكائنات من حيث البنية والمقاومة.

واستناداً إلى هذه المبادئ التي قدّمها داروين في أصل الكائنات الحيّة وتطوّرها، وصولاً إلى وضع الإنسان الحالي، اكتشف العلماء قوانين الوراثة وما يتبعها من الجينات (الخلايا الوراثية) التي تحمل صفات الإنسان، وتنقلها من الآباء إلى الأبناء، من خلال التلقيح والتكاثر. وهذا ما جعل علماء الأنثروبولوجيا يعتقدون بأن الجنس البشري مرّ بمراحل تطوّرية عديدة، حتى وصل إلى الإنسان (الحيوان الناطق والعاقل). ومهما يكن الأمر، فإنّ النقاش لا يزال مفتوحاً حول دور الأنثروبولوجيا في الدراسات الخاصة بتطوّر الإنسان هذا التطوّر الذي يدخل في الإطار التاريخي، ولكن بطبيعة بيولوجية، لا بدّ من دراسة مبادئها ومظاهر تغيّرها.

ويرتبط علم الأحياء بكل العلوم الطبيعية ولاسيما علم وظائف الأعضاء والتشريح والوراثة، هذا الأخير الذي يساهم بشكل كبير في تفسير التنوع الوراثي في العضيات التي تنتمي إلى النوع نفسه.

وتكمن علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الحياة في أن هذا الأخير يفسر لنا كيفية نقل صفات معينة عبر الأجيال ويفسر كيفية تغييرها لتظهر صفات جديدة، وهذا ما تهتم به أيضا الأنثروبولوجيا الفيزيقية خاصة من خلال اهتمامها بدراسة تطور الجنس البشري ورسم تاريخه. ولا ترتبط علاقة الأنثروبولوجيا والبيولوجيا

بالحاضر والمستقبل فقط، بل تتعداها للماضي من خلال اهتمام البيولوجيا أيضا بتحليل البقايا العضوية للمساهمة في معرفة تاريخ وسيرورة النوع البشري، وهو الهدف الذي تتقاسمه مع الأنثروبولوجيا.

2/علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الأرض (الجيولوجيا) والجغرافيا:

الجيولوجيا هي علم طبقات الأرض، حيث تساعد الدراسات الجيولوجية التاريخية في تحديد الفترات الزمنية التي عاش فيها كل نموذج من أنواع الجنس البشري نظرًا لوجود البقايا العظمية للأسلاف على شكل بقايا مستحاثات حفرية بين ثنايا القشرة الأرضية الرسوبية المنضدة بعضها فوق بعض وفق خاصية النشوء والتقدم لكل منها بحيث يكون أسفلها أقدمها وأعلاها أجدها. وهذا يمكننا من معرفة الفترة الزمنية التي عاش فيها الإنسان الحفري إلى جانب معرفة العالم الحيواني الذي كان يحيط به من خلال التعرف على البقايا العظمية المستحاثية للأنواع الحيوانية التي كانت تعاصره في بيئة جغرافية واحدة ، كما أننا نستطيع التعرف على الظروف المناخية التي كانت سائدة عندما يعيش هذا الإنسان أو ذاك في تلك الأزمنة السحيقة من تاريخنا البشري.

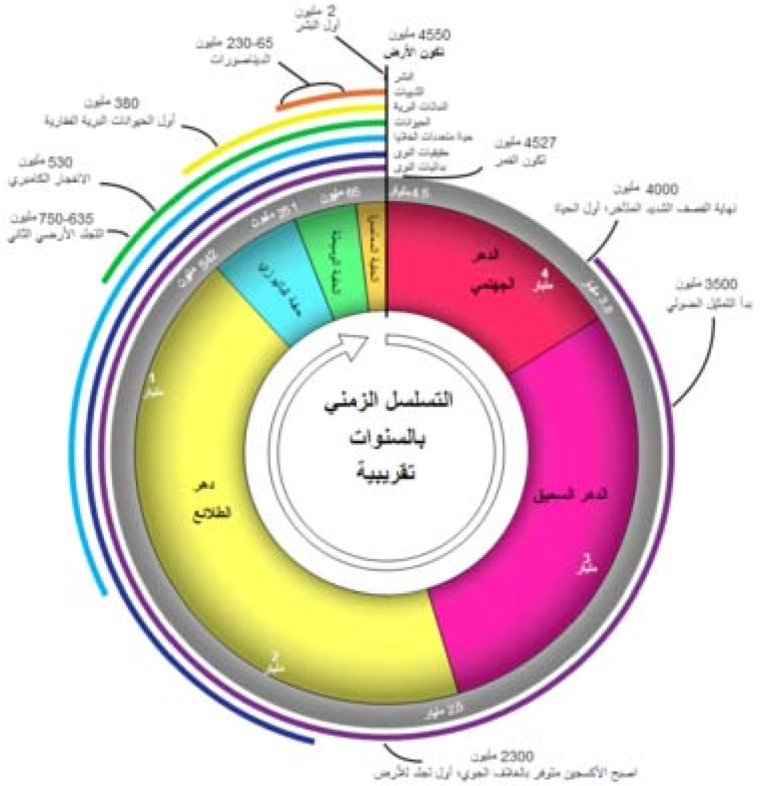

عنوان الصورة: مقياس زمني جيولوجي.

وكما تستفيد الأنثروبولوجيا من الدراسات الجيولوجية، تستفيد أيضاً من المعطيات العلمية الجغرافية، وفي مقدّمتها النواحي الطبيعية، من تضاريس ومياه، إلى جانب الظروف المناخية التي تتفاوت من منطقة إلى أخرى، وذلك بحسب قربها – أو بعدها –من خط الاستواء، أو من شواطئ البحار والمحيطات، أو ارتفاعها وانخفاضها عن سطح البحر.

فهذه العوامل كلّها تؤثّر في حياة الإنسان بجوانبها المختلفة، العضوية والاجتماعية والثقافية. ولذلك، فإنّ الأحوال المعيشية والبنى الاجتماعية عند المجتمعات البشرية، ليست متشابهة بسبب تباين الظروف الجغرافية التي توجد فيها تلك المجتمعات. فسكان المناطق الجبلية المرتفعة يكونون في مأمن من الأخطار الخارجية، بينما يتعرّض سكان السهول دوماً إلى غزوات واجتياحات من الشعوب أو القوى الخارجية؛ وفي المقابل، يكون سكان المناطق الساحلية أكثر انفتاحاً في علاقاتهم مع العالم الخارجي، قياساً بأهل المناطق الداخلية حيث تكون العلاقات الأسرية شبه منغلقة على ذاتها، إلى جانب الالتزام بالعصبية القبلية؛ وهذا ينعكس في سلوكية السكان في هذه المنطقة أو تلك. ولذلك، يميل علماء الأنثروبولوجيا إلى إهمال ما يسمّى بالقدرات الفطرية للشعوب الإنسانية، ويؤثرون كتابة تاريخ الحضارة في ضوء عوامل البيئة والحظ وتسلسل الأحداث المترابطة، فهناك من يجد أنّ للمناخ أثرًا في ناتج الطاقة الإنسانية، وهناك من يعتقد بوجود علاقة بين الطقس والخمول الذي يتميّز به سكان المناطق الحارة، أو النشاط الاندفاعي الذي يميّز سكان في المناطق الباردة والعاصفة .وضمن هذه الرؤية، قام الدكتور"**وليام بيترسن**" أواسط الستينات من القرن العشرين، بإجراء تحليل دقيق للارتباط الوثيق بين الطقس والوظائف الفيسيولوجية، وبنى دراسته على التقدّم الذي أحرزه المرضى الذين كان يشرف على علاجهم، وتبيّن من نتائج أبحاثه، أنّ تقلّبات حالة المرضى تتبع نمطاً مشابهاً لتراوحات الضغط البارومتري، وبدا وكأنّ الظاهرة الأولى تتأثّر بالثانية.

وإذا كان من الصحيح أنّ وظائف الإنسان الفسيولوجية قابلة للتكيّف مع أنواع البيئات المختلفة، فإنّه من السهل – في المقابل – أن نتصوّر أن بعض جوانب البيئة، تكون أكثر أهميّة وتأثيرًا من بعضها الآخر، في مراحل معيّنة من تاريخ التطوّر الإنساني، الحضاري والاجتماعي والثقافي ... وهذا كلّه يدخل في جوهر الدراسات الأنثروبولوجية وأهدافها. وهكذا، تُشكّل الأنثروبولوجيا مع العلوم الأخرى، ولا سيّما العلوم الإنسانية، منظومة من المعارف والموضوعات التي تدور حول كائن موضوع الدراسة، وهو الإنسان. ويأتي هذا التشابك (التكامل) بين هذه العلوم بالنظر إلى تلك الأطر المعرفية والمناهج التحليلية، التي تنظّم العلاقة المتبادلة والمتكاملة بين المجالات المعرفية المختلفة التي تسعى إليها هذه العلوم.

هذه العلوم التي تم التطرق إليها لا تمثل سوى عينة بسيطة من العلوم التي لها علاقة وارتباط بالأنثروبولوجيا. فهناك الكثير من العلوم الأخرى التي لم يتسع المقام لذكرها. فالأنثروبولوجيا تعتمد في استقاء مادتها العلمية من جل العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية. كونها تدرس الإنسان من مختلف جوانبه المكونة لذاته (بيولوجيا، اجتماعيا، نفسيا، ثقافيا..)، فهي بالتعاون مع كل هذه العلوم تكوّن حقلًا كبيرًا لفهم الإنسان، الكائن الفريد من نوعه، ودراسته بشكل شامل ومتكامل. كما أن رسم حدود واضحة المعالم بين مختلف العلوم (كما الحدود الموجودة بين الدول والأقاليم) أمر من الصعوبة بما كان. فكثيرًا ما تتداخل مواضيع هذه العلوم ومناهجها واهتماماتها خاصة فيما يتعلق بدراسة الإنسان، فلا يمكن فهم هذا الكائن المميز بعيدًا عن استفادة هذه العلوم من بعضها بعضًا.